

# دستوريفسكى

صبي مع المسيح  
عند شجرة عيد الميلاد

ترجمة يوسف نبيل



مكتبة فريق\_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



## كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

**انضم إلى الجروب**

**انضم إلى القناة**

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد

قصة مترجمة (١٨٧٦)..

الكاتب: ديستوفسكي

ترجمة: يوسف نبيل

## عن هذا الكتاب..

هذه القصة كُتبت في عام 1876 وهي قصة قصيرة تنقسم إلى جزئين متتاليين يعرض فيهما الكاتب الأحوال التي تواجه الأطفال الفقراء. ويذكرنا ذلك الموضوع بأسئلة إيفان كرامازوف الشهيرة حول أزمته الوجودية مع الشر وتعذيب الأطفال... لم يكن بإمكانه أن يجد أي تبرير لتعذيب طفل واحد في هذا العالم حتى وصل به الأمر لقوله إنه إن كان الله يعلم أن ذلك سيكون تكلفة خلق هذا العالم فمن الأفضل لو لم يكن قد خلقه من البداية.

يخبرنا ذلك الإلحاح المتكرر في قصص دستوفسكي عن الأطفال - في العديد من الأعمال - عن انشغال الكاتب بهذا العالم. وقد سبق دستوفسكي كثيرًا من علماء النفس في اكتشاف مدى تعقد وثراء هذا العالم، فهو ليس ذلك العالم الساذج البسيط، ونقل لنا ذلك في شخصيات أطفال بالعديد من أعماله، ويمكن أن تكون أشهرها قصص الأطفال بالرواية الخالدة: الإخوة كرامازوف.

إن قصة صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد تعد بمثابة مرثاة صغيرة لهذا العالم الذي يمكن فيه تعذيب طفل، وعندما ينقل لنا دستوفسكي هذه الرؤية نجد اختلافًا كبيرًا للغاية بينه وبين كتاب آخرين ممن يمكن أن يندرجوا تحت لواء المدارس الواقعية والواقعية الاشتراكية مثلًا.. فهو لا ينقل عذاباتهم وآلامهم ككاميرا ترصد تغيرات المجتمع، بل ينقلها لنا من منظور نفسي وروحي يظل أعماله دائمًا.. يقدمها لنا في حلم جميل وبأس في الوقت نفسه.. إنه دستوفسكي كاتب المتناقضات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



# الصبي ذو اليد

إن الأطفال شديداً الغرابة.. إنهم يحلمون ويرون رؤى مختلفة في كل عام، وعند حلول عيد الميلاد وفي أحد الشوارع وفي زاوية معينة منه، ألتقي صبياً عند شجرة عيد الميلاد.. إنها نفس الشجرة في كل عام لا يتعدى عمر هذا الصبي السابعة. وبينما كانت الثلوج تهطل بشكل مريع لم يكن الصبي يرتدي سوى ملابس صيفية، ولكن كان لديه وشاح قديم رث ملفوف على رقبته.. كان هذا كل ما لديه. كان يسير "بصحبة يد"... هذا تعبير فني يعني أنه يطلب صدقة. وقد اخترع الصبية أنفسهم هذا التعبير والصبية من هذا النوع كثيرون يتتبعون عليك في طريقك، ويصيحون صيحة ما يتدربون عليها، ولكن هذا الصبي لم يصح ولم تصدر منه أية كلمات بريئة أو غريبة، حدق في عيني بجرأة. وبدا كما لو أنه يعلن عن مهنته. وعندما استعلمت عنه أخبروني أن لديه أختاً مريضة عاطلة عن العمل. ولم أعرف ذلك فحسب، ففي الحقيقة عرفت أن هؤلاء الصبية الذين يطلق عليهم "صبية ذوي أيد" إن عادوا خالي الوفاض - حتى في ذلك الصقيع المريع - ينتظرهم الاعتداء والضرب وبعد أن جهزت بعض الكوبيكات لأمنحها له وجدت وجهه قد احمر، وأشار لي بيدين متصلبتين إلى قنبر ما حيث رأيت زمرة أخذت في الشرب باستهتار... مجموعة من أولئك الذين يقررون الإضراب عن العمل في المصنع يوم الأحد فيبدأون الإضراب يوم السبت، ويعودون إلى العمل قبل الجميع مساء يوم الأربعاء وكان مع هؤلاء الرجال زوجاتهم الجياع اللاتي يتعرضن للضرب منهم، ومعهن أطفالهن الذين تصر بطونهم الخاوية من الجوع.

فودكا ووحل وفسق... والفودكا قبل كل شيء.. وبالكوبيكات القليلة التي يعود بها الصبي يرسلونه إلى البار ليأتي إليهم بالخمير من جديد. وفي بعض الأحيان يلهون أنفسهم بأن يصبوا الخمر في فمه ويغرقون في الضحك بينما يسكب الطفل ما يستطيعه من الخمر على الأرض حتى يمكنه التنفس.

طعم الخمر في فمي شديد السوء... أخذت في سكبه دون ندم!

وعندما ينمو الصبي يرسلونه للعمل في مصنع ما، وبما أنه قد بدأ في العمل وكسب المال، فإنه يجد نفسه مربوطاً بتلك الزمرة ليقدم لها المال حتى تسكر مرة أخرى. وفي المصانع يتحول هؤلاء الأطفال إلى مجرمين حقيقيين. يبدأون التسكع في المدينة ويتعرفون على تلك الأماكن والسراديب التي يمكن أن يدخلوها ويقضوا بها الليل دون أن يلاحظهم أحد. وقد نجح أحدهم في قضاء عدة ليالٍ بصحبة أحد البوابين في أحد الصناديق ولم يلحظه أحد.

يهاب الجميع السرقة حتى أولئك الذين تخطوا الثامنة، وأحياناً دون أن يكون لديهم حتى أي وعي بمدى الجرم في ذلك الفعل وفي النهاية يحصلون على كل شيء: الجوع والبرد والاعتداء. كل شيء ما عدا الحرية، وسرعان ما يهربون من تلك العصابات لينسكعوا لحساب أنفسهم. هذا الوجود الوحشي لا يكون بمقدوره فهم أي

شيء.. لا يفهم أين يعيش ولا إلى أي أمة ينتمي، وهل من وجود لإله وسيد ما أم لا، وحتى تلك الأمور غير المعقولة التي تنتهي لأذانهم يعتبرونها حقائق ثابتة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



أنا روائي، وأظن أنني اختلقت هذه القصة وأقول "أظن" مع أنني أعلم حقيقة أنني قد اختلقتها بالفعل، ولكني لا أنفك أتخيل أنها يجب أن تكون قد حدثت في مكان وزمان ما، أن تكون قد حدثت عشية عيد الميلاد في مدينة ما عظيمة في وقت صقيع مفرع.

أرى في خيالي طفلاً.. طفلاً صغيراً يبلغ من العمر ستة أعوام أو أصغر من ذلك استيقظ هذا الطفل في ذلك الصباح في قبو رطب. كان يرتدي جلباباً مرتعشاً من البرد. كانت هناك سحابة من البخار الأبيض تتشكل من أنفاسه. بينما يجلس على صندوق في زاوية القبو نفخ البخار خارج فمه، وكان يسلي نفسه في ضجر مراقباً البخار بينما يبتعد. كان يشعر بالجوع بشكل مزرر. وقد ذهب عدة مرات هذا الصباح إلى الفراش المصنوع من ألواح خشبية حيث ترقد أمه المريضة على مرتبة رقيقة كقطيرة، وتحت رأسها صرة تستخدمها وسادة كيف أنت هنا؟ لا بد وأنها قد أتت مع ابنها من مدينة ما، وأصيبت فجأة بالمرض.

لقد أخذوا مالكة المكان التي كانت توجر "زوايا" القبو، إلى مركز الشرطة منذ يومين وأصبح المستأجرون في العراء في الوقت الذي اقترب فيه يوم العطلة، والوحيد الذي بقي في القبو كان مستلقياً لمدة الأربع والعشرين الساعة الأخيرة، وقد مات وهو مخمور ولم ينتظر عيد الميلاد. وفي زاوية أخرى بالغرفة هناك امرأة عجوز بائسة تبلغ من العمر الثمانين كانت يوماً ما مربية أطفال، ولكنها الآن تركت وحيدة لموت دون صديق... كانت تتأوه من آلام الروماتيزم وتبوخ الطفل الذي خاف أن يذهب صوب الزاوية التي تجلس فيها. لقد تناول كأساً من الماء في الغرفة الخارجية، ولكنه لم يستطع أن يجد كسرة خبز وكان على وشك أن يوقظ أمه لعدة مرات شعر بالرعب في هذا الظلام، وقد حل المساء، دون مصباح. وقد شعر بذعر عندما لمس وجه والدته ولم يتحرك بينما كان بارداً كحائط. وفكر قائلاً لنفسه: "إنه باردٌ للغاية". وقف لبعض الوقت واضعاً يديه دون وعي على كتفي المرأة الميتة، ثم نفخ في أصابعه ليدفئها، ثم حرك يديه بهدوء باحثاً عن قبعته على الفراش وخرج من القبو كان يمكنه أن يذهب مبكراً عن ذلك، ولكنه كان خائفاً من ذلك الكلب الضخم الذي يعوي طوال الليل بباب جاره أعلى السلم وبينما غاب الكلب في ذلك الوقت خرج إلى الشارع.

يا إلهي.. يا لها من مدينة! لم ير شيئاً مماثلاً لذلك من قبل. ففي المدينة التي أتى منها كانت هناك دوماً مثل تلك السحب السوداء في المساء. كان هناك مصباح ليضيء الشارع بأكمله، وكانت مصاريع المنازل الخشبية الصغيرة ذات الأسقف المنخفضة مغلقة، ولم يوجد أي شخص في الشارع، بعد الغسق يغلق جميع الناس أبوابهم فلا يوجد شيء سوى ذلك العواء طوال الليل، هناك كان الجو دافئاً للغاية، وكان يحصل على الطعام، بينما هنا.. يا إلهي... لو يحصل فقط على شيء ليأكله ويا لها من ضجة وجلبة هنا.. ما هذا الضوء وهؤلاء الناس وتلك الجياد والعربات. يا له من صقيع! يبدو البخار كالسحب فوق فم الجياد التي تتنفس بدفء وتثير بحوافرها ذلك الصوت فوق الصخور عبر الثلج الذائب كالمسحوق. يندفع الجميع... يا إلهي.. كم اشتاق



للقمة يأكلها، وكم شعر بالبؤس فجأة. مر أحد رجال الشرطة وإلتقت بعيدًا متجنبًا رؤية ذلك الطفل.

هنا في شارع آخر يا له من شارع واسع حيث سيدهسه أحدهم بلا شك. كم كان صياح الجميع متسابقين بعرباتهم طويلاً، والضوء ذلك الضوء.. ماذا كان؟! نافذة زجاجية ضخمة وعبر تلك النافذة هناك شجرة تصل حتى السقف بأوراق ذهبية وتفتح وبعض الدمى والجياد... هناك أطفال يرتدون ثيابًا جميلة ونظيفة يركضون في الغرفة يضحكون ويلعبون ويأكلون ويشربون شيئاً ما. ثم بدأت فتاة صغيرة في الرقص مع أحد الصبيان... يا لها من فتاة جميلة، وكان يمكنه أن يسمع الموسيقى من النافذة، نظر الطفل وتعجب وضحك رغم أن أصابعه قدميه كانت تتألم من البرد، وأصابع يديه كانت حمراء متيبسة يؤلمه تحريكها. وتذكر فجأة الطفل كيف تؤلمه أصابع يديه وقدميه وبدأ في البكاء، واستمر الأمر ونظر عبر نافذة أخرى شجرة عيد ميلاد أخرى، وعلى الطاولة كعك من كل الأصناف، كعك باللوز، كعك أحمر وكعك أصفر، وثلاث شابات رائعات يجلسن هناك، يقدمن الكعك لأي شخص يذهب إليهن.

ظل الباب مفتوحًا ودخل كثير من السادة والسيدات من الشارع تسلل الصبي وفجأة فتح الباب ودخل يا للهول... كم صرخوا فيه وأشاروا له أن يتراجع. ذهبت إحدى السيدات مسرعة إليه وألقت له بكوبيك (1)، ولم يستطع أن يلتقط بأصابعه الحمراء ذلك الكوبيك. كان في حالة مريعة لأنه شعر فجأة بالوحدة الشديدة والهلع كل ذلك في لحظة واحدة... يا إلهي! ماذا كان ذلك أيضًا؟ كان الناس يحتشدون وهم يشعرون بالإعجاب. وخلف النافذة الزجاجية ثلاث دمي صغيرة ترتدي ملابس حمراء وخضراء وكانت تلك الدمي تبدو كما لو كانت حقيقية تمامًا. إحداهما على شكل رجل عجوز بعض الشيء جالسًا يعزف على كمان ضخم والدميتان الأخريان تقفان على مقربة منه تلعبان على كمان صغير وتومئان في وقت واحد وتتنظر كل منهما للأخرى، وتتحرك شفاهما كما لو كانتا تتحدثان بالفعل، ولا يمكن فقط للمرء أن يسمع صوتهما عبر تلك النافذة. في البداية اعتقد الطفل أن تلك الدمي حية، وعندما أدرك أنها مجرد دمي؛ ضحك. لم ير من قبل دمي، وليست لديه أية فكرة عن وجودها. لقد أراد أن يبكي ولكنه شعر بالتسلية من تلك الدمي وشعر للتو أن أحدهم أمسك بثوبه من الخلف... صبي ضخم شرير كان يقف خلفه.

دفعه فجأة إلى الخلف، وأسقط قبعته واستولى عليها. سقط الطفل على الأرض سامعًا الصياح. شعر بالخوف يخدره فنهض سريعًا وهرب. لقد ركض لا يعلم إلى أين يذهب.. ركض صوب بوابة حديقة أحدهم وجلس على كومة من الأخشاب، وقال في نفسه: "لن يجدوني هنا في هذا الظلام المخيم على المكان!".

تكوم الطفل على نفسه وكاد ألا يتنفس من فرط الرعب، شعر فجأة بالسعادة في هدوء. كفت يدها وقدماه عن الألم وأصبحت دافئة للغاية كما لو كانت في فرن ثم اجتاحت قشعريرة جسمه.. لماذا؟ لا بد وأنه قد نام. كم هو رائع أن ينام هنا! سأجلس هنا قليلًا ثم أذهب لأنظر للدمى مرة أخرى. وفجأة سمع صوت أمه تغني له.

“أمي... أنا نائم.. كم هو رائع أن أنام هنا!”. وفجأة همس صوت ناعم بالقرب من رأسه قائلاً: “تعال إلى شجرة عيد الميلاد خاصتي.. هذه الشجرة الصغيرة”.

ظن أن هذا الصوت لأمه، ولكن لا.. لم يكن كذلك. من كان يناديه؟ لم يتمكن من رؤيته، ولكن أحدهم انحنى وعانقه في الظلام وبسط يديه عليه و... يا إلهي... يا له من ضوء ساطع يا لها من شجرة عيد ميلاد، ولم تكن حتى شجرة تتوب (2).. إنه لم ير من قبل شجرة مثلها! أين هو الآن؟ كل شيء كان مضيئاً وبراقاً وكل من حوله كانت الدمى، ولكن لا... إنها ليست دمي... إنهم أطفال وبنات صغار، ولكنهم شديدي السطوع والبريق. لقد أتوا جميعهم يحلقون حوله، وقبلوه جميعهم، وأخذوه حاملين إياه معهم حتى أصبح يطير بنفسه ورأى والدته تنظر إليه وتضحك في فرح. “أمي.. أمي.. كم هو رائع المكان هنا”. وقبل الأطفال مرة أخرى وأراد أن يخبرهم على الفور عن تلك الدمى في نافذة ذلك المتجر. وسألهم ضاحكاً ومعجباً بهم: “من أنتم يا أولاد.. من أنتن يا بنات؟”.

فأجابوه: “هذه شجرة عيد الميلاد الخاصة بالمسيح... فالمسيح دوماً لديه شجرة عيد ميلاد في ذلك اليوم. فالأطفال الصغار ليست لديهم شجرة خاصة بهم”. ثم اكتشف أن جميع هؤلاء الأولاد والبنات كانوا أطفالاً مثله تماماً، فبعضهم قد تجمد في السلال التي كانوا فيها أطفالاً رضع راقدين على درجات أبواب ساكني مدينة بطرسبرج الأغنياء، وآخرون أخرجوا مع نساء فنلنديات من قبل دار اللقطاء وماتوا اختناقاً، وآخرون ماتوا على صدور أمهات كن يتضورن جوعاً أثناء مجاعة سمارا (3)، وآخرون ماتوا داخل عربات الدرجة الثالثة في القطارات من الهواء الفاسد، والآن فجميعهم هنا... كانوا جميعهم يشبهون ملائكة المسيح، وقد كان في وسطهم رافعاً يديه صوبهم وباركهم هم وأمهاتهم الخائطات... وقد وقفت هؤلاء الأمهات في إحدى الزوايا يبكين، وقد عرفت كل واحدة منهن ابنها أو ابنتها، فهرع الأطفال لهنّ وقبلوهنّ ومسحنّ دموعهنّ بأيديهم الصغيرة راجين إياهنّ ألا يبكين فقد كانوا شديدي السعادة.

وفي الصباح وجد البواب جسد الطفل الصغير الميت متجمداً من الصقيع على كومة الأخشاب بالأسفل، فبحثوا عن أمه أيضاً، وكانت قد ماتت قبله. لقد إنقيا أمام الرب في السماء.

لماذا اختلقت مثل تلك القصة؟ أقيمت بذلك لأحتفظ بمفكرة عادية مفكرة كاتب قبل كل شيء؟ لقد وعدتُ بتأليف قصتين أستمدهما من أحداث حقيقية لكن هذا ما جرى تماماً، فإنني لا أنفك أتخيل أن كل هذا يمكن أن يكون قد حدث في الواقع.. أقصد ما حدث في القبو وعلى كومة الخشب؛ لكن بالنسبة إلى ما يخص شجرة عيد ميلاد المسيح، فلا يمكنني أن أخبركم ما إن كانت قد حدثت أم لا. لذلك فأنا روائي أقوم بتأليف القصص.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



# متميزون للكتب النصية



**لينك الانضمام الى الجروب - Group Link**

**لينك القتاة - Link**

# Notes

[←1]

عملة روسية كالقرش.

[←2]

شجر التتوب نوع من الأشجار يصنعون منه أشجار عيد الميلاد.

[←3]

مراجعة هائلة حدثت في روسيا بداية منذ عام 1821 ومات فيها زهاء 6 ملايين شخص.